النظرية النقدية ومفهوم الديمقراطية:

شريقي انيسة [1]

إذا أردنا إعطاء لمحة عن وفلسفة مدرسة فرانكفورت النقدية ومؤسسيها الأوائل ليس بالأمر السهل بعدما أصبحت هذه المدرسة بمثابة المنطلق ما بعد الحداثة post-modernism الفكري لأي نظرية أو اتجه نقدي لفكر وفلسفة مرحلة ما بعد الحداثة خاصة في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأدب والنقد الأدبي وبعض العلوم الأخرى ... الخ.

ومن المعلوم فإن مدرسة فرانكفورت هي التيار الذي نشأ في مدينة فرانكفورت بألمانيا بقرار من وزير التربية بتاريخ:03 فبراير 1923[2] بالاتفاق مع معهد الأبحاث الاجتماعية, وقبل التكوين الرسمي للمعهد رأس [**كيرت جيرلانج**] هذا التجمع الفكري لكن وافته المنية قبل افتتاحه بقليل فاختير لإدارته المؤرخ **كارل جرونبرج** ما بين عامي 1923-1929 والذي كرس توجهات بحوث المعهد نحو أطروحات الماركسية ونحو أنشطة الحركة العمالية الأوروبية وكان عضوا منخرطا في صفوفها وفي جانفي 1931م خلف **ماكس هوركهايمر Max Horkheimer 1895 -1973**، وانظم إليه معظم المفكرين المشهورين فيما بعد **إيريك فروم Erick From 1900-1980م**، **هاربرت ماركيوز Marcuse Herbert 1898-1979م**، **تيودور أدرنو Theodor Adorno 1903 – 1969 م**[3] .

---

[1] باحثة في الفلسفة جامعة سعيدة

[*] مدرسة فرانكفورت أعلام ومؤلفات، نذكر أبرز مؤلفات علماء المدرسة: ماكس هوركهايمر 1895-1973 أبرز أعماله "النظرية التقليدية والنظرية النقدية"، "جدلية التنوير" مع أدرنو.

تيودور أدرنو1903-1969 من أعماله "تعالي الغيري والنيوماني في ظاهرية هوسرل" "كير كيجارد وبناء الجمالية"، هاربرت ماركيوز 1898-1979 أبرز مؤلفاته "العقل والثورة"، "الحب والحضارة" "الإنسان ذو البعد الواحد"،"نحو التحرر" "الثورة والثورة المضادة" .

1 كمال بومنير. النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسيل هونيث منشورات الاختلاف الجزائر ط1، 2010، ص:79 .

من بين اهتمامات مدرسة فرانكفورت النظرية النقدية تطرقت فيها إلى مختلف نماذج الوعي النظري والعلمي وبالأخص الإيديولوجية الشمولية* وقد حاولت الجمع في آرائها بين الهيغلية والماركسية ومدارس علم الاجتماع[1] وعلم النفس بالشكل الذي جرى توظيفه في نقد نمطية الوعي والعقائد واعتبر النقد مبحث جوهري من مباحث مدرسة فرانكفورت النقدية فكانت هناك ظروف ساعدت على نشوئها خاصة السياسية، منها اندلاع الحرب العالمية الأولى1914، قيام الثورة البلشفية 1917، إخفاق الثورة في ألمانيا1926، عدم نجاح الحركات الإشتراكية الراديكالية في أوروبا، ظهور الستالينية في الإتحاد السوفياتي1924 وظهور النظم الفاشية في إيطاليا1922 والنازية في ألمانيا1933 هيمنة النظم الرأسمالية وتعزيز سيطرتها الإقتصادية والإيديولوجية خصوصا بعد خروجها من الأزمنة الاقتصادية الطاحنة التي مرت بها في الثلاثينات.

كل هذه الظروف ساهمت في تأسيس العقلانية الحديثة وأفكار الماركسية التي استعبدت الذات الإنسانية والسمة الأساسية لهذه المدرسة هي الممارسة النقدية التي لم تتخل عنها وهي الأساس لفكر مدرسة فرانكفورت وكان بذلك النقد الذي حاولت تقديمه هذه المدرسة بـ: **ما بعد الحداثة Post –Modernism** ، كان بمثابة الارتباط القوي، ولعل هذا كله راجع إلى أحد مؤسسيها الأوائل **ماكس هوركهايمر** من خلال مؤلفه "**النظرية التقليدية والنظرية النقدية** "، حيث نجد فيها أبرز الخطوط الأساسية للنظرية النقدية[2] عرفت بها المدرسة والتي حاولت تقديم مشروع نقدي قام به أعضاء هذه المدرسة (مدرسة فرانكفورت).

---

2 جون فرانسوا دورتي، فلسفات عصرنا، ترجمة إبراهيم صحراوي منشورات الاختلاف ط1، 2009 ص: 170 .

*الإيديولوجية الشمولية: هي إلتزام كامل بطريقة للحياة (أنظر الموسوعة السياسية، عبد الوهاب الكيالي، ص:422) .

1 عبد الغفار مكاوي. حوليات النظرية النقدية بمدرسة فرانكفورت، دورية علمية، العدد:13، الكويت 1993، ص:22 .

[2] جون فرانسوا درتي، فلسفة عصرنا، ص:171 .

المبحث الأول: أصول النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت :

من المعروف أن الفلسفة والنقد صنوان لا يفترقان ويتجسد النقد بأشكال عديدة ولا أحد يمكنه إنكار دوره وأهميته في الواقع، وهذا الواقع يتمثل في أشكال نظم معرفة قيم الإجتماع وأنماط الفكر والفعل والسلوك، إذ أن إحياء الحس النقدي معناه إحياء الحس بالحرية والاستنارة و ضرورة التغير والتطلع إلى التقدم والحوار.

1- مفهوم النقد عند مدرسة فرانكفورت :

2-1 المفهوم اللغوي:

النقد: critique، يرجع أصل كلمة نقد إلى اللفظة الإغريقية **xpiviev** وتعني الحكم وهو نفس ما يعنيه تعريفها القاموس في لغات أوروبا القديمة والوسطية وللكلمة مصطلحات في اللغة الانجليزية ،الأول هو **criticism** يعني النقد بمعناه الشائع، أي الإستهجان والكشف عن الخطأ كما يعني كذلك الفحص الدقيق غير المتحيز بمعنى شيء ما ولمضمونه ولقيمته، أما المصطلح الثاني فهو **critiquel** ويطلق على النقد المستند على أسس منهجية واضحة ويعني النقد فعاليته نظرية وأداة إجرائية رئيسية في النظر والتفكير تستهدف مساءلة طرق التي تتكون بها القناعات بإظهار زيفها ونقصها وتجريحها[1] .

1-3 المفهوم الاصطلاحي:

كذلك نجد كلمة نقد في معجم **لالاند** الفلسفي لفحص مبدأ أو ظاهرة للحكم عليه أوعليها حكما تقويميا تقديريا ولهذا يطلق العقل النقدي على الفكر الذي لا يأخذ بأي قرار دون التساؤل أولا عن قيمة هذا الإقرار سواء من حيث مضمونه أو من حيث أصله و إما على استقباح يدور حول نقطة خاصة وإما على دراسة إجمالية ترمي إلى دحض أو إدانة عمال ما[2] .

---

[1] توم بوتومور "مدرسة فرانكفورت" ترجمة سعد هجرس، دار أويا للطباعة والنشر ليبيا ط1. 1998 . ص :205.

[2] أندري لالاند "الموسوعة الفلسفية" المجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل منشورات عويدات بيروت ط 2 2001، مادة "نقد" ، ص238.

4-1 المفهوم الفلسفي للنقد

اشتهر القرن الثامن عشر باسم "قرن النقد" وقد ارتبط هذا بحركة دينية وفلسفية شاملة ابتدأت في انجلترا وفرنسا بتكسير الشكل الساقط للمعرفة الفلسفية أي شكل النسق الميتافزيقي وكذلك برفع شعار محاربة اللاهوت والخرافات التي تحولت إلى ميتولوجيا الإنسان الأوروبي وتقييد عقله ونادت بإعطاء الحرية للعقل ونقد شامل لكل الأشياء والظواهر والمؤسسات والمفاهيم وبإخضاع كل هذه الموضوعات لمحك العقل، وبالتالي الخروج بأوروبا من ظلام الجمود والظلم والأساطير إلى أنوار العقل والحرية[1]

وبهذا كله يبقى النقد مجرد وسيلة لتغيير الأوضاع السائدة ولهذا نجد العديد من الآراء مختلفة حول النقد فهناك من يرى أنه هو توجيه سهام نقاط الضعف وهناك من يحاول أن يستخدمه كبنية أساسية لبناء صرح فكري أساسه التخلص من الأفكار الزائفة والتي لا قيمة لها في الوسط المعرفي والفكري[2]

ونجد العديد من الفلاسفة خاصة الألمان الذين سبقوا المدرسة النقدية، بنوا صرحهم الفكري ومعظم أفكارهم الفلسفية على مفهوم النقد وعلى وجه الخصوص نجد **كانط** الذي بنا مشروعه الفلسفي والنظري على مفهوم النقد ويتجلى في فلسفته الترسنتالية وهذا واضح من خلال معظم كتبه التي تناولت النقد والتي تحمل العناوين التالية **"نقد العقل العملي " " نقد العقل النظري"، " نقد ملكة الحكم "** و يذهب **كانط** في كتابه نقد العقل الخالص إلى اعتبار أن الفلسفة في حاجة جديدة إلى علم جديد يحدد إمكانية ومبادئ ونطاق حدود كل المعرفة القبلية[3] لأن المعرفة القبلية هي مصدر الموضوعية واليقين، وهذه المعارف القبلية بالنسبة **لكانط** "1724-1804" مصدرها العقل

---

[1] محمد نور الدين أفاية "الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية "هابرماس" إفريقيا للنشر المغرب ط2 ، 1998، ص:28 .

[2] المرجع نفسه ص29.

[3] إمانويل كانط' نقد العقل الخالص، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي بيروت، د ط: 1961 ص:45 .

الخالص وبهذا يعتبر أنه ليس أمامنا سوى تقديم نقد للعقل الخالص، واعتبر أن كل المعارف لا بد أن تخضع لنوع من الفحص والعناية .

يؤكد "**هابرماس**" بأن **كانط** هو أول من أحدث قطيعة مع الإرث الميتافيزيقي وغض الطرف عن فلسفة الحقيقة والدائم ليسلط اهتمامه على ما اعتبره الفلاسفة في ذلك الحين على أنه ما لا يمكن إعطاؤه مفهوما وما ليس بكائن وعلى ما هو بتعميم حادث وزائل وقد تناول **هابرماس** النقد عند **كانط** من زاوية خاصة وهي أن النقد القائم على الفحص التاريخي وإعادة صياغته من جديد، وبهذا أسس **هابرماس** مفهوما جديدا على النقد الكانطي وسماه باسم الفضاء العمومي[1] .

أما النقد عند **هيغل**1770 -1831 فهو يتخذ طابع وشكل سلب جدلي يتجاوز الموجود باستمرار والجدل عنده هو رفض وإنكار لكل ما هو قائم بالفعل وما يقال عن النقد يقال أيضا عن السلب ولذلك فإذا كانت فلسفة **هيغل** مثالية فهي أيضا نقدية[2] وبالنسبة **لهيغل** أن النقد هدفه تقديم فكرة جديدة وهي ما سماها بفكرة الضد أو النقيض .ذلك لا يجب أن ننسى إسهامات **كارل ماكس**1818-1883 في النقد فهو أيضا له إسهامات عديدة في هذا المجال ونجد هذا يتجلى في كتابه **"العائلة المقدسة 1844"** وكتابه "**نقد الاقتصاد السياسي**" كذلك كتاب **"نقد فلسفة الحق عند هيغل "** إلا أن أهم كتبه في مجال النقد هو" **الإيديولوجية الألمانية 1846"** وفي هذا الكتاب نجد **ماركس** يتناول النقد على أمرين هما :

أولا: محاولة ربط النقد النظري بالنشاط العملي .

ثانيا: هو المضمون الجديد الذي أعطاه لمفهوم الإيديولوجية وربطه بمجتمع التفاوت الطبقي .

---

[1] أبو النور حمدي أبو النور حسن"يورغن هابرماس" الأخلاق والتواصل، دار التنوير بيروت،ص: 22

[2] المرجع نفسه ص: 23 .

يعتبر النقد عند **ماركس** بشكل عام هو نقد سالب يهدف من ورائه إلى تغيير الواقع المعاش والسائد بكل مقاييسه .

5-1 مفهوم النقد عند مدرسة فرانكفورت

أما النقد عند " **مدرسة فرانكفورت**" فهو يتحدد في مشروعاتها النقدية الكبرى نقد النظام الهيغلي، نقد الإقتصاد السياسي والنقد الجدلي يعني أن انطلاقة النقد لدى مفكري المدرسة تستلهمه من الماركسية والهيغلية، وفي التحليل النفسي ويمكن اعتبار أن المدرسة النقدية هي امتداد للتقليد العظيم للفلسفة الألمانية، فالإشكالية الفلسفية لدى مدرسة فرانكفورت تدور بين نسقي **كانط** و **هيغل**[1] .

وبهذا اتخذ أصحاب النظرية النقدية من الفلسفة الهيغلية محور نقدهم لكل فلسفة فقد تجاوز الفكر الماركسي إلى موضوعية **هيغل** فتأثير **هيغل** يتجلى بقوة من خلال تاريخية المجتمع[2] وقد كان **هيغل** بمثابة الأساس الفكري للنظرية النقدية، فقد ساهم لإرساء دعائم النقد لديهم وما عرف عنه بنزعته الثورية التاريخية فاستخدموها كمادة خام وأرض خصبة انطلقوا منها في تأسيس النظرية النقدية لديهم، ونجد هذا التأثير يتضح مع **يورغن هابرماس**، خاصة مع **هيغل** فالعقل **الهيغلي** يمثل الوجه الآخر للعقل الأداتي الذي يعد من أهم المقولات التي أثرت في مدرسة فرانكفورت، ونجد هذه الفكرة واضحة في كتاب "**المعرفة والمصلحة** " **لهابرماس** عندما ربط بين ظهور هذا العقل بين المعرفة والمصلحة[3]

ومن هذه الفكرة نجد مدى الاتصال الفكري بين فلاسفة فرانكفورت بصفة عامة **وهابرماس** خاصة لفكرة النقد التي كانت موجودة من قبل، خاصة مع **هيغل** وكذلك نجد هذه الفكرة النقدية الماركسية ليست إلا جزءا من فكر التنوير وهو الفكر العقلاني الذي يرى أن المجتمع من العالم الطبيعي[4]

---

[1] المرجع السابق ، ص :28 .

[2] توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ص: 40 .

[3] أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغن هابرماس الأخلاق والتواصل ، ص:30 .

[4] المرجع نفسه، ص: 32 .

كانت مهمة النظرية النقدية أو مدرسة فرانكفورت هي القيام بمشروع تنويري قائم على انتقادهم للواقعية الساذجة وكانت تهدف إلى إقامة نظرية إجتماعية متعددة المصادر والمنطلقات وفي نفس الوقت تجاوزت الكانطية والمثالية الهيغلية والجدلية الماركسية، فهي نقد للواقع ونقد للمجتمع بطريقة سلبية إيجابية، وكان للنظرية النقدية تأثر واضح بالماركسية وقد اتضح هذا مع **هوركهايمر وأدرنو** فقد شكل نقد **ماركس** للإيديولوجيا منطلقا أساسيا **لهوركهايمر** في نقده للإيديولوجيا فقد اعتبر كلاهما أن نقد الإيديولوجيا هو خطوة ضرورية على طريق الثورة البروليتارية*

أما مع **أدرنو** فهو يرى أن الإيديولوجية كانت وسيلة للإضطهاد، لأنه لم يعد لها في الغرب وجها واضحا للتعرف عليها، فقد أضحت أكثر قدرة على التخفي والذوبان، كذلك نجد نفس التأثر عند **يورغن هابرماس** في تناوله للماركسية وماركس حيث ذهب على أنها فكر يحتوي على قدرة نقدية هائلة لكل ما هو عام وشامل، وحاول إعادة النظر إلى الماركسية، وهنا قد خلق **هابرماس** تعبيرا جديدا في الفلسفة النقدية وهو الماركسية كنقد[1].

واعتبر **هابرماس** الماركسية ليست إيديولوجية أو اعتقادا أساسيا بل هي بمثابة طاقة للنقد، وكذلك نجد هناك مدارس ومذاهب فلسفية ونفسية كانت ضمن المؤثرات التي شكلت النظرية النقدية منها التحليل النفسي الفرويدي، وكان هذا نتيجة ما شاهده فلاسفة النظرية النقدية من انحطاط للقيم داخل المجتمع الصناعي والمتقدم ومن انسحاب لحق الفرد في الاختلاف داخل النظام الفاشي أولا، وفي ترتيبات النظام الرأسمالي المغلق للمجتمع الصناعي ثانيا، حاولوا إعمال العقل لإعادة الاعتبار للفرد ولتنشيط الفكر النقدي انطلاقا من هذا الاهتمام عملوا على إعادة قراءة النص الفرويدي على ضوء تحولات المجتمع الصناعي متسائلين عن دلالات الرغبة والتصعيد

* البروليتارية: مصطلح سياسي واجتماعي يطلق على طبقاته العمال الأجراء الذين يشتغلون في الإنتاج الصناعي ومصدر دخلهم هو بيع ما يملكون من قوة العمل (أنظر الموسوعة السياسية، عبد الوهاب الكيالي، ص:533).

اللاشعوري وموقع الجنس في آليات الأغراء الحديثة وعلاقتها بالعملية الإنتاجية وعن المعاني الجديدة التي يتخذها الحب[1].

مما سبق ذكره نصل إلى النقد بشكل عام كان الهدف الأساسي للمدرسة النقدية ومدرسة فرانكفورت لأنه يعمل على تغيير ما هو فاسد في الواقع السائد تغييرا فعليا وإن لا يقتصر على تعريته وتحليله تحليلا نظريا وفكريا لأنه إما أن يتحول إلى فعل ثوري واع يستبدل ببناء إجتماعي ومعرفي وقيمي، وقيام مجتمع أصلح وأقرب إلى الواقع الحي بواسطته نضع تطور لتغيير مستقبلي ينفي السائد الذي دب فيه الفساد وإما أن لا يكون نقدا على الإطلاق وبهذا يصبح النقد عندهم بمثابة الجهد العقلي والعملي الذي يتجه لعدم تقبل الأفكار والأساليب والقول والفعل والسلوك والظروف الاجتماعية والتاريخية التي تربط الإنسان بعالمه ومجتمعه تقبلا أعمى وهو جهد يبذل للتوفيق بين جوانب الحياة الاجتماعية ومن الأفكار والأهداف العامة للعصر وتمييزا لمظهر فيها من الجوهر والبحث في أصول الأشياء وجذورها وفي المصالح الكامنة وراءها والمعارف المرتبطة بهذه المصالح ...الخ، أي معرفتها معرفة حقا تقضي إلى تغييرها من أساسها على خطى نموذج ضدي متصور وممكن في آن واحد[2] .

02- الإرهاصات الفكرية والقضايا الجوهرية لمدرسة فرانكفورت :

اشتهرت مدرسة فرانكفورت بقضايا فكرية مختلفة وعديدة يمكننا إيجازها من خلال ما سوف نقدمه حول الأفكار المتباينة في مدرسة فرانكفورت النقدية من خلال تناول بعض المفاهيم والمشكلات التي اهتمت بها النظرية النقدية" **كالتشيؤ والإغتراب**" "**العقلانية الأداتية أوالتقنية**" نقد أنظمة المعرفة كنقد النزعة الوضعية الحديثة نقد الماركسية ونقد الإيديولوجيا ومنها ما يلي:

---

[1] أبو النور حسن أبو النور حمدي، يورغن هابرماس الأخلاق والتواصل ، ص:32

[2] محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية "هابرماس" ، ص:38

[2] عبد الغفار مكاوي . حوليات النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص:14 .

2-1 التشيؤ و الإغتراب:

تعتبر مقولة التشيؤ والإغتراب بمثابة الأساس الفكري لجل الأفكار التي يطرحها فلاسفة النظرية النقدية ونواة مركزية يدور حولها الجانب الأكبر في تحليلاتهم وآرائهم للمجتمع الرأسمالي والصناعي العقلاني، فمدرسة فرانكفورت ترفض تشيؤ المعرفة الإنسانية بوصفها كيانا مفارقا للعقل الإنساني ومجاوزا له[1]، فالمجتمع الصناعي المتقدم ينصب عليه حديثهم عن هذه المقولة يكشف بذلك تشيؤه في ظواهر عديدة ومتنوعة، من هذه الظواهر أن الإنسان قد تحول في ظل علاقات العمل الصناعية والرأسمالية إلى مجرد عنصر أو جزء ضئيل من جهاز الإنتاج الهائل الذي تحدده " الأثمنة" و "الميكنة" وصار عجلة صغيرة مجهولة قابلة لأن يستبدل بها غيرها داخل "العالم التقني" الضخم الذي يصعب الإحاطة بشبكته المعقدة أو بالقوى التي تحرك خيوطه[2].

حيث أصبح الإنسان في بنظرهم تحت سيطرة الآلة التي تفسد عليه منافذ المبادرة الشخصية الحرة وتفوق تحديده لذاته وتخنق فاعليته في وسط المجتمع الذي يعيشه ويصبح بذلك الإنسان بطريقة غير مباشرة خاضع للآلة ، وبالتالي يحدث نقص من قيمته الإنسانية والذاتية ويكون تحت ضغط عملية الإنتاج الآلية إلى مستوى الشيء الذي تشكله القوى "التشيؤ" الذي تشكله القوى المسيطرة كيفما شاءت (جورج لوكاش) .

أما الاغتراب فقد عالجته النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ونجد أنها أكدت على أن العمال والمديرين في النظام الرأسمالي مغتربون لأنهم محرومون من إشباع حاجاتهم الأساسية، فالعمل لا شخصي والاستهلاك مغترب وسلوكياتهم مدفوعة بالمصلحة وليس بالحب، أنهم قد يكونوا أطباء أو محامين لكنهم بالتأكيد ليسو بشرا[3]، فالاغتراب عموما بالمعنى الواسع له بعدين فالبعد الأول لهذه الكلمة هو سلب الوعي الجذري للفرد

---

[1] توم بوتومور ، مدرسة فرانكفورت، ص:177 .

[2] مكاوي عبد الغفار، حوليات النظرية النقدية، ص:25 .

[3] توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ص:167 .

والجماعة و بالتالي سيطرة المؤسسات عليه، والبعد الثاني احتواؤه داخل اتجاه مسارها العام ومثل أي انبثاق لموقف نقدي عن طريق هذا السلب المنظم المتقدم وهو عبارة عن عقل قمعي حضاري متقدم بالنسبة للمدرسة[1]

وفي هذا نجد تأكيد النظرية النقدية على لسان **يورغن هابرماس** انه إذا كانت الماركسية قد ركزت في جعل أبحاثها على الاغتراب الاقتصادي فحسب أصحاب النظرية أن الاغتراب الاقتصادي لم يعد هدفا للنضال السياسي الذي يجب أن تمارسه الطبقة العاملة ذلك لأن هذا الإغتراب الاقتصادي يظل قائما في ظل اغتراب ثقافي أوسع نطاقا وحسب بعض أعمدة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت خاصة "**أدرنو وهوركهايمر**" تأثير ظاهرة الاغتراب والتشيؤ على الفن والإبداع وبينوا كيف انحط العمل الفني في ظل المجتمع الصناعي وظروف صناعة الثقافة وعملائها وأجهزة إنتاجها والإعلام عنها إلى حضيض السلعة في سوق الإستهلاك والمزايدة مما أفقده أصالته وشموله وفعله المباشر في القلوب والعقول، بحيث أصبح مجرد شيء يقصد به الاستمتاع السطحي والتسلية في أوقات الفراغ ولم يبق أثر للعلاقة الحية بالعمل الفني للفهم المباشر لوظيفته بوصفه تعبيرا كما كان يسمى يوما باسم الحقيقة[2] .

2-2 العقلانية الأداتية:

العقل الأداتي أو الذاتي كما حدده **هوركهايمر** في "**أفول العقل**" ويقصد به العقل الذي يستخدم كأداة لبلوغ المنفعة ما يضر ببنية العقل الأصلية، ذلك أن العقل الأداتي عقل براغماتي يتلخص همه الوحيد في إنتاج النجاح أو على الأقل ما يساعد على الوصول إلى ذلك دونما اكتراث بمضمون ما ينتجه أو بقيمته[3].

---

[1] علاء الطاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماز، منشورات مركز الإنماء القومي بيروت، ط:1، بدون سنة، ص:21 .

[2] عبد الغفار مكاوي، حوليات النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص:27.

[3] عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، الدار العربية للعلوم، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1 2007، ص:115.

كما يقصد بها عندهم نمطا من التفكير السائد في المجتمعات الغربية المعاصرة وخاصة المتقدمة علميا وتكنولوجيا، وما يميز هذا التفكير الأداتي هو التزامه بالإجراءات والوسائل دون النظر إلى الغايات أي أنه يلتزم بتوظيف وسائل دون تساؤل عن مضمون الغايات وهل هي في خدمة الإنسان أم هي معادية له .

فهو يكتفي بالنظر إلى الإنسان أو الحياة الاجتماعية من منظور العلوم الطبيعية باعتبارها شيئا ثابتا وكما واضحا ويعتمد على المقولات الكمية ويخضع الواقع والظواهر الطبيعية والإنسانية للقوانين الشكلية والقواعد القياسية والنماذج حتى يتمكن من التحكم في الواقع الطبيعي أو الاجتماعي[1] .

ومنه نجد أن العقل الأداتي هو عبارة عن نموذج من التفكير السائد في المجتمع الصناعي الحديث له تسميات عدة مثلها العقل الذاتي الشكلي التقني ويصفونه على لسان **ماركوز** في كتابه الشهير بالتفكير "**ذو البعد الواحد**" وهو أهم أعماله على الإطلاق بحيث يوجه فيه نقدا مشتركا للمجتمعات الرأسمالية والشيوعية بحيث أن المجتمعات الصناعية الحديثة خلقت إحتياجات وهمية للإنسان ومن خلال أجهزة الإعلام والإعلانات تم توجيه جميع الأفراد للفكر الإستهلاكي[2].

ولقد انتقد العقل الأداتي كذلك كل من "**أدرنو**" و"**هوركهايمر**" ويتضح ذلك في كتابهما المشترك "**جدل التنوير**" بالنسبة لهم هذا العقل الذي أشادت به فلسفة التنوير وأعلت من شأنه وآمنت به إيمانا لا حد له ودعت إلى استخدامه في كل شيء وتوظيفه في كل القضايا والمسائل التي تهم حياة الإنسان، وفي رأيهم قامت الحضارة الغربية ولا زالت على هذه السيرة وأداتها الأساسية في هذا العقل الشمولي أو الأداتي الذي انفلت من القيم والغايات الإنسانية فساد القمع والتسلط والإغتراب والتشيؤ في هذه الحضارة

[1] كمال بومنير. النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر الى أكسيل هونيت ص44 .

[2] المرجع نفسه، ص: 44 .

وفقدت طابعها والدمار الذي عرفته المجتمعات الغربية المعاصرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية يعتبر صورة بالغة ومعبرة فعلا عن عمق الأزمة التي أصبحت تتخبط فيها هذه المجتمعات .

إضافة إلى هذه الأزمان الاقتصادية والإجتماعية وأسلحة الدمار الشامل وقد تأثر **أدرنو** أشد التأثر بوحشية الحكم النازي الذي قامت مؤسساته على العقلنة والنظام والفعالية لكنه تسبب في القضاء على الملايين من الناس وعليه كان هذا موقف **أدرنو** الأداتي الذي ارتبط في آخر المطاف بالشقاء والعذاب ومختلف أشكال السيرة والهيمنة

وهكذا تحطمت أسطورة العقل الذي تم التبشير به منذ عصر التنوير عندما أخذ طابعا أداتيا اندمج كليا في غايات سياسية وإيديولوجية تهدف إلى الهيمنة على كل شيء أو موضوع وكلما تمكن العقل الأداتي من السيطرة على موضوعه ازداد انطلاقا على نفسه[1] .

3-2 القمع والتسلط :

من أهم المواضيع التي تبحث فيها المدرسة النقدية لأنه الطابع الذي ميز المجتمع الصناعي المتقدم ونجد هذه المقولة حاضرة في أفكار "**هربرت ماركيوز**" ومثل جوهر الاتجاه هو رفض المجتمع القمعي القائم والثورة عليه من خلال تأكيده على الدور الحاسم والثوري للعقل في حياة الإنسان وعدم النظر إلى المجتمع من رؤية ذات بعد واحد.

وهنا يظهر تأثره **بفرويد** خاصة في كتاب" **قلق الحضارة**" فيذهب **فرويد** إلى أن التطور الإجتماعي والحضاري الذي حققته البشرية لم يتم إلا بالقمع المستمر للدوافع والحاجات الإنسانية الأولية ويزيد عن هذا **ماركوز** فيذهب إلى أن هذا القمع من الدوافع التي تحدث في جميع المجتمعات البشرية من القمع الذي فرضته مصالح السلطة الحاكمة ومؤسساتها ومجتمعات الرخاء الصناعية الحديثة لا تستثنى من هذه القاعدة إذ

[1] كمال بومنير، قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت ،مؤسسة كنوز الحكمة الجزائر: 2012 ص39.

جعلت من هذا القمع غير الضروري مؤسسة ذات قوة و سيطرة[1] ، إضافة إلى هذه المشكلات التي تميزت بها مدرسة فرانكفورت اشتهرت بقضايا فكرية عديدة سوف نحاول شرحها باختصار.

4-2 نقد النزعة الوضعية:

من المعروف لدينا أن بدايات القرن العشرين شهدت أوج رواج الفلسفة الوضعية التي شنت حملات عنيفة ضد التأمل الفلسفي والنظريات الفكرية المجردة، وأن المنطق العلمي يجب أن يكون المرجع الوحيد والأصلي للنظريات، ويكون بذلك التفكير صحيح غير أن الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت قد وجه انتقاداته الحادة إلى النزعة العلمية المفرطة وأنساقها التي تحولت إلى إيديولوجيا تستند إلى يقين معرفي ومعتقدات إيمانية فانتقدها **تيودور أدرنو** لعجزها عن اكتشاف المصلحة الذاتية التي قد تسهم في تحقيق تقدم موضوعي بسبب القصور الكامن في أسسها المنهجية وفشلها في إقامة صلة قوية بين المعرفة من ناحية والعمليات الإجتماعية من ناحية أخرى.

كذلك انتقدها **هابرماس** بسبب طبيعتها المحافظة وقصورها عن فهم العلاقة الخاصة بين علم الإجتماع والتاريخ إنطلاقا من أن علم الإجتماع الوضعي لا يأخذ في اعتباره دور التحولات التاريخية في تشكيل المجتمعات[2]، كذلك انتقدها **ماكس هوركهايمر** في الثلاثينيات من القرن العشرين ضمن محاولته الكشف عن تهافتها وذلك لأنها تعامل البشر بوصفهم حقائق وأشياء مجردة داخل نطاق محدود ومخطط من الحتمية الميكانكية أو فيما تتصور العالم كمعطى بشكل مباشر في التجربة فقط مما حذا بها ألا تميز بين الجوهر والمظهر، وأخيرا عندما أقامت تمييزا مطلقا بين الحقيقة والقيمة ومن ثمة فصلت المعرفة عن المصالح البشرية.

---

[1] عبد الغفار مكاوي، حوليات النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص:31 .

[2] توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ص:212 .

[2] كمال بومنير قراءات في الفكر النقدي، ص12.

وبهذا هاجم مفكروا مدرسة فرانكفورت سعي الوضعية إلى تحقيق المعرفة العلمية وتكميم الحقائق بما يؤدي إلى ضياع الوعي الجوهري للظواهر الإجتماعية وأنه ارتباطا بذلك فقد أدى تمثل الوضعية لنموذج العلم الطبيعي في علم الاجتماع إلى فصل المعرفة عن بعدها الأخلاقي، وهو ما يعني استبعاد الموقف الأخلاقي للباحث عن طريق الإدعاء بأن علم الإجتماع هو علم متحرر من القيمة .

زيادة عن ذلك نجد نقد **هابرماس** للوضعية فقد وجه لها نقدا باعتبارها كلها تعبيرات مختلفة الإيديولوجيا المكونة للحداثة التقنية، وفي نظره الوضعية تعبر عن أسلوب لتحنيط العلم لدرجة يغدو فيها إيمانا مقتنعا بقدرته الخارقة على تقديم أجوبة على كل الأسئلة ووضع الحلول لكل المشاكل[1].

يلاحظ **هابرماس** في كتاب "**العلم والتقنية كإديولوجيا**" بأن المعرفة العملية أصبحت مرتبطة بالحسابات، وتعتبر الوضعية من هذا المنظور تعبيرا عن هذه المشروعية للنظم السياسية القائمة، لقد تأسست على نطاق واسع عملية الترجمة التي تحققت بين السياسيين الذين يمنحون المهمات وبين الإختصاصيين من علوم المشروع على مستوى الحكومة أسست بيروقراطيات من أجل البحث والتطوير كما تأسست المعاهد العلمية للإستشارة التي تعكس وظائفها للديالكتيك الخاص لنقد العلم إلى البراكسيس السياسي[2]، ضمن هذا السياق ينفي **هابرماس** ما يسمى بالحياد العلمي، فالعلم من المنظور الوضعي لا ينفصل عن المصلحة بل هناك ارتباط وثيق بينهما .

وفي كتابه "**المعرفة والمصلحة**" الذي دخل به في نقاش جذري ضد النزعة الوضعية وحاول إعادة بناء تاريخ المذهب الوضعي المعاصر قصد تحليل ترابط المعرفة والمصلحة[3]، وبهذا عمل أصحاب المدرسة على نقد هذه الأنظمة المعرفية المغلقة التي تعتمد في نظرهم

---

[1] محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفسفة النقدية"هابرماس" ص: 60.

[2] يورغن هابرماس العلم والتقنية الإديولوجيا ترجمة حسن صقر منشورات الجمل 2003 ص 124.

[3] يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة:2006 ص:31

أشكالا تنظيمية جد مقننة للحياة الإجتماعية، بمعنى أنها أصبحت إيديولوجيات شمولية تنظم علاقات الإنسان بالإنسان والإنسان بالأشياء .

5-2 **نقـــد الماركسية** : يقسم ماركس أشكال الوعي الإجتماعي إلى مستويين :المستوى الأول: أشكال الوعي الإيديولوجي .

المستوى الثاني: أشكال الوعي الموضوعي (العلوم والفلسفة التي تقدم نظرية كما هو شأن الماركسية مثلا في تقويمها للتحليل الإقتصادي والتاريخي وإعلائها من قيمتها .....) .

والمشكلة التي تراها النظرية النقدية تكمن في تأكيد **ماركس** وبشدة أنه ليس هناك معرفة دون مصلحة، فأي معرفة سواء كانت إيديولوجية أو علمية مشروطة أولا وأخيرا بمصلحة تدافع عنها ومن أجل قيم معينة ومحددة[1]، غير أن **ماركس** في نظريته عن المصلحة لا يشير في الغالب إلى مصالح إجتماعية يراها خاصة كالمصالح الطبقية (أي مصالح الربح أو يملك وسائل الإنتاج) بوصفها شروطا ضرورية (أي من دونها لا يمكن أن يحصل أي تعبير وتمثيل)، وفي الوقت نفسه بوصفها شروطا محددة لأنه من خلالها يتم تحديد الأفكار والنظريات، وبالتالي فإن فرضية المصالح الإجتماعية لا تسعنا في فهم إمكانية الإنتقال من الوعي الإيديولوجي إلى الوعي العلمي، علاوة على أن العلم كما الفلسفة يشتركان في القول بأن هناك مصالح كونية منها الحقيقة التي تشكل معيارا مقبولا بالنسبة للفرد أيا كانت طبقته، وهذا ما يسمح بالقول بأن المعرفة لا يمكن أن توضع دائما من أجل المصلحة، فإذا اعتبرنا نظريتهم موضوعية فهي حجة بأن الوعي لا يتحدد دائما بالمصلحة الطبقية التي تنتمي إليها .

[1] ستيفان هابر، هابرماس والسوسيولوجيا، ترجمة محمد جديدي، منشورات الإختلاف الجزائر،ط1 2012، ص:39 .

المبحث الثاني: مدرسة فرانكفورت ومفهوم الديمقراطية

عرفت كلمة **الديمقراطية** حضورا واسعا ومكانة كبيرة في الأندية الأساسية والمحافل الدولية خاصة في عصرنا هذا، وأكثر من ذلك فهي من بين مفردات الفكر السياسي العالمي قدما بأصولها اليونانية[1] فكانت الشغل الشاغل في الفكر السياسي والفلسفي منذ القدم وبحث في هذا المصطلح الكثير من المفكرين والفلاسفة محاولين بذلك استقصاء معانيه ومدلولاته العلمية، لكن هذا لا يعني وضوح معناها تماما فامتدادها التاريخي والتحولات التي شهدها هذا المفهوم عبر الأزمنة عرف تعددا في المفاهيم وكان هذا نتيجة تجارب مجتمعات إنسانية في مجال الحكم وممارسة السلطة في الوسط السياسي من جهة، ومن جهة أخرى كانت حصيلة جهود فكرية فلسفية للعديد من الفلاسفة الذين تناولوا هذا المفهوم وحاولوا تقديم صورة واضحة وجلية لكلمة ديمقراطية، هذا ما جعل عدم وجود اتفاق عام وشامل حول مصطلح الديمقراطية. وعليه يمكننا طرح السؤال على الصيغة التالية: **ما المقصود بالديمقراطية؟ لغة إصطلاحا، فلسفيا.** وبأي معنى أخذت به بعض المدارس الفلسفية النقدية على سبيل ذلك؟ هل كان لهذا المصطلح حضورا في مدرسة فرانكفورت النقدية ؟

1- 1 التأثيل اللغوي لمفهوم الديمقراطية:

الديمقراطية كلمة يونانية وهي مركبة من قسمين القسم الأول " **DEMOS** " وتعني الشعب و" **CRATOS**" وتعني حكم أي أن المعنى الكلي لكلمة ديمقراطية يعني سلطة الشعب أو حكمه[2] وهذا المعنى نجده تقريبا عند **أندري لالاند** حيث يعرفها أنها حالة سياسية تكون فيها السيادة للمواطنين كافة بلا تمييز[3] .

---

[1] عبد الرزاق عيد ومحمد عبد الجبار، الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، حوارات القرن. دار الفكر دمشق. ط1. 1999. ص:11 .

[2] م. رور نتال, ب . بودين, الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة لبنان. ط2 1985 . ص:210 .

[3] أندري لالاند الموسوعة الفلسفية، ص: 259.

كذلك نجد أنها نظام سياسي تكون فيه السيادة لجميع للمواطنين لا للفرد ولا للطبقة[1] ويمكن أن نضيف أن الديمقراطية هي نظام قديم يحمي الفرد ويعطيه حقه السياسي[2].

ومن خلال هذه التعاريف اللغوية لكلمة الديمقراطية نجد أنها كلها تؤكد على الفرد وقيمته وكرامة الشخصية الإنسانية، ويقوم على أساس مشاركة الجماعة في الإدارة والديمقراطية والسياسية هي أن يحكم الناس أنفسهم على أساس من الحرية والمساواة.

2-1 المفهوم الإصطلاحي:

من خلال التعريف اللغوي استخلصنا أن مفهوم الديمقراطية كان ولا زال غائبا على أرض الواقع، ويبقى هذا المفهوم يحمل في طياته نوع من المثالية في صورة عامة وشاملة، غير أننا إذا نظرنا إليها من الناحية الإصطلاحية نجد التعدد في التعاريف والتنوع فيها وهذا راجع لتعدد المفكرين والفلاسفة الذين بحثوا وتناولوا هذا المصطلح وكل يعرفها حسب فكره الخاص نتيجة معطيات ما عاشها في زمن معين، حيث نجد في المعجم النقدي لـ: " **ريمون بودون**" ترجع هذه الكلمة إلى المصطلح الإيديولوجي[3].

وتعدد التعاريف الديمقراطية يرجع إلى أن المصطلح في حد ذاته يتم بالطابع التاريخي من جهة ومتأثر باللون الإيديولوجي الذي يصبغه من جهة ثانية، والبعض يرجع إلى أن الكلمة في حد ذاتها لم تتحقق بعد على أرض الواقع وهي ذات صبغة مثالية فقط فمثلا نجد **جون جاك روسو** إذا أخذنا عبارة الديمقراطية بكل معناها الدقيق نجد أن الديمقراطية الحقيقية لم توجد ولن توجد أبدا[4].

---

[1] إبراهيم مذكور المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون الطبع القاهرة:1983، ص 86 .

[2] S. Auroux/M.Weil, Dectionnaire Des Autres Et Des Themes De La Philosophie, Ed: Hachette,Im:France 2004.P:85.

[3] ريمون بودون وفرانسيس بوركيو، المعجم النقدي لعلم الإجتماع، ترجمة سليم حداد. ديوان المطبوعات الجامعية. ط1 . 1986 . ص:310 .

[4] جون جاك روسو، العقد الإجتماعي، ترجمة دوقان قرقوط، دار القلم بيروت، د ط، ص:118 .

وهذه الفكرة نجدها كذلك حاضرة عند المفكر **عابد الجابري** بقوله " أعتقد أن الذي استعملها أول مرة كان يقصد منها التعبير عن فكرة مثالية أكثر منها التعبير عن الواقع[1] "

وعليه نجد أن من خلال هذه التعاريف الديمقراطية ككلمة لم تتحقق في الماضي وليست متحققة في وقتنا الحاضر ومن غير المنتظر تحقيقها في المستقبل ومع هذا نجد الديمقراطية عبارة عن نظام اجتماعي يؤكد قيمة الفرد وكرامة الشخصية كإنسان ويقوم على أساس مشاركة أعضاء الجماعة في إدارة شؤونها، والديمقراطية السياسية هي أن يحكم الناس أنفسهم على أساس الحرية والمساواة لا تمييز بين الأفراد بسبب الأصل أو الجنس أو الدين أو اللغة،هذا من جهة ويمكن أن نجد تعريف آخر لديمقراطية بشكل عام فهي نظام سياسي المؤسس لدولة الحق والقانون وهي نظام يقوم على إدخال العقلانية في مجال تدبير الشؤون العامة عن طريق الانتقال من سلطة الفرد إلى سلطة المؤسسات ومن سلطة العرف إلى سلطة القانون الذي يتساوى أمام هيبته الجميع ومن حق النخبة في ممارسة السلطة إلى حق الجميع في المشاركة في تدبير الشأن العام[2] .

ومع هذا نجد أنه يمكن التمييز بين ديمقراطيتين: ديمقراطية أثينا المباشرة والديمقراطية التمثيلية، فالنموذج الأول هو عبارة عن ديمقراطية مباشرة تستند إلى مشاركة المواطنين وتدخلهم المباشر في حكم أنفسهم ومبدأ التسويغ فيها أن من حق المواطنين أن يتمتعوا بالمساواة السياسية وبالحرية في أن يحكموا أنفسهم وأن يحكموا من قبل أنفسهم فهم الحاكم والمحكوم والسيادة التامة هي لجماعة المواطنين ومشاركتهم في الوظائف التشريعية والقضائية مباشرة[3] .

---

[1] محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان،مركز الدراسات الوحدة العربية. لبنان ط:2ص:14 .

[2] محمد سبيلا، زمن العولمة، دار طوبقال للنشر، المغرب .ط1 .2006 . ص:48،

[3] فهمي جدعان، المقدس والحرية ,المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1.2009 ص148.

أما الديمقراطية التمثيلية فهي القائمة على الحرية والعدالة والمساواة وعلى هذا يوضح **بودون** بأن السؤال الأول هو معرفة ما إذا كنا نأخذ الكلمة في نفس المعنى عندما نقول إن أثينا القرن كانت ديمقراطية وعندما نتكلم اليوم على الديمقراطيات الغربية الكبرى[1]

ومن هذا المنطلق لا يمكننا إحصاء مفاهيم الديمقراطية أو تعقبها في التاريخ رغم الأهمية التي يحتويها المفهوم، ونحن هنا لسنا بصدد المقارنة بين الديمقراطية الأثينية والديمقراطية الحالية، خاصة الديمقراطية الغربية، ومن خلال التعاريف التي سبق ذكرها نصل إلى أنه إذا كانت الديمقراطية تعني حكم الشعب لنفسه أو إسناد السلطة إلى الشعب فإن العديد من المفكرين متفق على أن الأخذ بالديمقراطية ليس غاية في حد ذاتها بل وسيلة لتحقيق غاية وهي الحرية والمساواة السياسية .

3-1 المفهوم الفلسفي للديمقراطية :

احتل مفهوم الديمقراطية الصدارة في الصراعات السياسية وكذلك في الفكر السياسي وسنجد مكانة خاصة في الفكر الفلسفي أيضا أهمية في تحديد مصير الشعوب.

إن التفكير حول الظاهرة السياسية شكل المحور الرئيسي في الفلسفة السياسية منذ التجمعات الإنسانية الأولى ومنها نصل إلى فكرة الديمقراطية هي فكرة قديمة عرفها الفلاسفة منذ القديم، فقد أشار **أفلاطون** إلى أن مصدر السيادة هو الإرادة المتحدة للمدينة وقد ظهر النظام الديمقراطي في المدن الإغريقية القديمة خاصة أثينا وقد لاحظ **أرسطو** في هذه المدينة أن أعضاء الجمعية العامة للشعب التي كانت بيدها السلطة الفعلية يلتقون حول واحد منهم وكان لا يحق إلا للرجال الأحرار حضور جلسات الجمعية العامة، وعلى الرغم من ذلك يعد قصور منهجي في تطبيق فكرة الديمقراطية إذا ما قارناه بالحاضر إلا أن الجهد الإغريقي في هذا المجال يعد رائدا للفكر الديمقراطي، **فأرسطو** صنف الديمقراطية ضمن الأنظمة الصالحة[2]، ومن هنا نجد فكرة الشعور الديمقراطي في

---

[1] ريمون بودون وفرانسيس بوريكو، المعجم النقدي لعلم الإجتماع،ص:310 .

[2] عريب مختار، مفهوم الديمقراطية في القديم، مجالات الدراسات الفسلفية ، العدد2 الجزائر1996 ص:59 .

المجتمع اليوناني القديم كنتيجة لظروف سياسية وفكرية جديدة لم تعرفها المجتمعات السابقة.

كذلك نجد فكرة الديمقراطية حاضرة في الفكر الروماني أيضا ولا ربما تجلى هذا من طريقة إجراء الانتخابات[1]، كذلك نجد فكرة الشعور الديمقراطي حاضرة في الإسلام لكنها تختلف عن ما تعنيه في المفهوم الغربي فإذا كانت الديمقراطية بمعناها الغربي تركز على الحقوق المجتمعية والسياسية فهي في الإسلام تركز على الناحية الإنسانية في الأفراد[2]

أما إذا أردنا الحديث عن الديمقراطية في العصر الحديث فلا نجد ديمقراطية واحدة بل توجد ديمقراطيات، وهنا نجد التعدد فمثلا نجد الديمقراطية الاجتماعية التي روج لها الفكر الماركسي كذلك تركيز الديمقراطية الغربية على الحرية كأساس لها وهي بذلك امتداد وانعكاس لليبرالية الإقتصادية الرأسمالية وركزت الديمقراطية الحديثة على مبدأ المواطنة واحترام الجميع للقانون وفي هذا يقول **سبينوزا** : يمكن لكل السكان من أبناء المواطنين وكل أولئك الذين ولدوا فوق التراب الوطني وكل الذين قاموا بتقديم خدمة للدولة أو سيقومون بها لسبب أو لآخر الاستفادة من حق المواطنة في النظام الديمقراطي[3] .

ونجد أيضا من سمات الديمقراطية الغربية الحديثة هي المشاركة السياسية هذه الخاصية التي تعطـــــي الشرعيـة للنظام السياســـي ويمكن أن نضيف أن الديمقراطيـــــة قد ظهرت عندما تأسس العقل بوصفه أداة المعرفة[4]، أي أن الديمقراطية هي نتيجة واضحة وجلية لطبيعة العقلانية، وهي بذلك تعطي ركيزة جديدة للدولة بعدما هدمت كيانها الأول المرتبط بالشرعية الدينية فهي ترجمة لقيم الحداثة

---

[1] المرجع نفسه ، ص: 67 .

[2] المرجع نفسه، ص: 69 .

[3] سبينوزا باروخ، رسالة في السياسة، ترجمة عمر مهيبل، موفم للنشر الجزائر:1995، ص:175

[4] فتحي التريكي رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة،مركز الإنماء القومي ،لبنان، د ط . 1992 ص:68

*ثورات القرن الثامن عشر إلى الثورة الإنجليزية 1690- الثورة الأمريكية 1976- الثورة الفرنسية 1789. (انظر الموسوعة السياسية لعبد الوهاب الكيالي ، ص: 871 .)

وعقلانية الأنوار،وعلى هذا كله فالديمقراطية الغربية الحديثة القائمة على الحرية والمواطنة والمساواة ترجمتها ثورات القرن الثامن عشر*

ومن ثمة اكتسبت هذه الثورات مكانة كبيرة في الفكر السياسي الحديث ويمكننا أن نستنتج من الخصائص السابقة أن الديمقراطية السياسية الغربية شَكْل سياسي حديث رغم جذوره التاريخية اليونانية القائمة على الحرية والمشاركة السياسية يترجم قيم وعقلانية عصر الأنوار .

ومن هذا نصل إلى أن الديمقراطية مهما كانت سياسية أو اجتماعية فهي تعبر عن نزعة عقلانية وقدرة إنسانية على الإبداع فهي تعبر عن تطلع الإنسان إلى حياة اجتماعية إنسانية قوامها الحرية والعدل، مهما كانت الديمقراطية فهي عرضة للانتقادات وكما قيل: "دعوة في الفلسفة السياسية تملك جوهريا التساؤل حول الديمقراطية الليبرالية وتكشف اليوم أكثر من ذي قبل انتصارها الهش "، فهي كما قلنا حصيلة للعقلانية الأوروبية الحديثة في مواجهة النظام الإمبراطوري الإستبدادي الذي ساد في العصور الوسطى .

2- الديمقراطية عند مدرسة فرانكفورت

إن الديمقراطية في نظر مدرسة فرانكفورت هي اليوم الشرعية الوحيدة التي يصعب إيجاد بديل عنها في الوقت الحاضر، فالإنسانية قد أتيح لها أن تجرب أنظمة الحكم المختلفة، التي تقوم بجملتها على حكم الفرد أو الأقلية للأكثرية، وقد أدرك الإنسان من بعد أن تعلق مصائر الإفراد بيد فرد أو قلة هو السبب الرئيسي في أن يحترق الحرث والنسل، وللحيلولة دون تكرر مأساة قوة النظام على حساب مصادرة الحقوق الأساسية للأفراد كان الركون للنظام الديمقراطي على اعتباره منهجا في الحكم يبعد الشعب عن دائرة الصراع الذي ليس فيه مصلحة عليا للشعب بأكمله [1].

فالديمقراطية منهج للحكم يسيطر على مصادر العنف من خلال تحكيم رأي الشعب من خلال تأمين حق المشاركة السياسية وإسهام الشعب في صنع القرار، فهي مبنية على

[1] الان تورين نقد الحداثة ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ،د.ط 1997 ص417.

تركيز السلطة بيد الشعب، والشعب هو الأقدر على إفراز النخبة التي تقوده إلى بر الأمان.

وبناءا على ما مر يمكن تعريف الديمقراطية بحسب مدرسة فرانكفورت بأنها تلك العملية الإجرائية التي تمكن الأحزاب المتنافسة من الوصول إلى السلطة بغض النظر عن كون الأحزاب المتنافسة ليبرالية المنهج والعقيدة السياسية أو غير ليبرالية، وعلى هذا الأساس نشأت ديمقراطيات لا تشترط أن تكون القوة التشريعية خاصة بالشعب على وفق نظرية الحقوق الطبيعية [1]، فبالإمكان أن تصبح الشرائع السماوية أو العادات الاجتماعية مصدرا متأرجحا بين كونه أساسي أو ثانوي في التشريع، ومن ذلك الديمقراطية المطبقة في العراق الحديث إذ جعلت التعاليم الإسلامية مصدرا أساسيا من مصادر تشريع القوانين.

لقد امتازت الديمقراطيات المعاصرة بأنها ديمقراطيات إجرائية تتخذ من وسائل الديمقراطية السلمية سلما للصعود إلى مسدَة الحكم، فالمتنافسين من الهيئات السياسية يبغون السلطة ويتسابقون عليها بشتى الوسائل المتاحة، وربما لم يكن ضمن دائرة عنايتهم مصلحة أفراد المجتمع، بل تكون المصالح مزدوجة في كثير من الديمقراطيات الحديثة، فالغاية هي مزيج من تحقيق المصالح الفردية أو الحزبية ومصالح الشعب الذي أعطى القوى السياسية الثقة ومكنهم من الحكم، ولعل بعض الديمقراطيات المعاصرة التي ابتعدت عن المنهج الليبرالي تعطي للعملية الإجرائية الأهمية الكبرى بجنب المبادئ الديمقراطية الأخرى، فالمهم ليس فقط الاستحواذ على السلطة بل حرمان الآخرين من الأقليات من المشاركة في الحكم وصنع القرار [2] .

إن كل نظام يخرج عن الإطار الذي فيه مصلحة الشعب أولا يبتعد عن الديمقراطية بفلسفتها الإصلاحية، ومنهجها التشاركي في الإدارة والقيادة، ويصبح عند ذاك موصوفا بأنه تسلطي أو قمعي أو دكتاتوري، تنتفي معه حرية الإنسان وكرامته،

---

[1] المرجع نفسه ص:418.

[2] الان تورين نقد الحداثة المرجع السابق ص420

وتستحوذ على فكره السياسي نظرية المؤامرة، فيفسر كل حركة سياسية محلية آو إقليمية آو دولية بأنها تريد إقصائه أو الذهاب بالمكتسبات التي حصل عليها، وبالتالي سيشعر ذلك الحزب أنه قد تملك البلد بكافة أبعاده، فيعمد إلى حماية ديمومته التي لن تقوم على وفق المبادئ الديمقراطية بل تقوم على أفكار التسلط ومصادرة حريات المواطنين السياسية والفكرية بشكل خاص ، والحريات الأخرى بشكل عام [1].

إن الأنظمة التي لا تقوم على المبادئ الديمقراطية هي أنظمة لا يمكن وصفها بأنها شرعية، على وفق التصور الحديث للديمقراطيات، ذلك التصور الذي يقوم على فكرة قبول المجتمع للنخبة الحاكمة، لأنه مصدر السلطات، ولأنه النظام الأقدر على الجمع بين توفير الكم الأكبر من حقوق الإنسان وتحقيق مقدار جيد من القوة في النظام والسلطة التي يتمكن الأفراد من خلالها من تبادل المنفعة بشكل حر وايجابي .

ولانتشار الفكر الديمقراطي في المجتمعات الإنسانية أصبح مصطلح الديمقراطية من السعة ما يمكن تأويله إلى إيديولوجيات مختلفة، تنضوي جميعا تحت الفكر الديمقراطي فبعض الأنظمة ارتأت أن تعتد بالحرية على حساب مبادئ الديمقراطية الأخرى، والبعض الآخر فضل المساواة على غيرها، وقد يفضل البعض الآخر الفكر الاشتراكي وليس الرأسمالي، وقد يفضل آخرون الأفكار التي لا تطابق الفكر الليبرالي الذي يقوم على الفردية والحرية .[2]

الأمر الذي تسبب بأن يؤول المصطلح إلى تأويلات كثيرة جدا، أدت إلى تحميل المفهوم ما لا يطيق، فذو النهج الاشتراكي صنع ديمقراطية خاصة به، وكذلك فعل صاحب المنهج المتطرف ولم يدخر وسعا من ينادي بأفكار القومية من صياغة ديمقراطية خاصة به أيضا ...الخ .

لقد أدت الإيديولجيات المختلفة إلى بقاء الديمقراطية مجرد شعار يحتدم حوله الصراع بين أقطاب الفكر الغربي من جهة والفكر الشرق أوسطي والشرقي والاشتراكي

---

[1] المرجع نفسه ص 422

[2] ألان تورين نقد الحداثة، المرجع السابق، ص: 423

من جهة أخرى فالممارسون للعمل السياسي يدلون بدلاء الأفكار التي تعزز مذاهبهم السياسية على حساب مرتكزات الديمقراطية كما صاغها مفكروا القرن التاسع عشر .

فعلى الرغم من أن الديمقراطية المعاصرة قد اعتمدت في اللون العام لها على مبادئ الديمقراطية التقليدية إلا أنها من حيث التطبيق الواقعي الحديث اقتربت أو ابتعد عن شمولية تلك المبادئ بأن ركزت على بعضها وأهملت البعض الآخر، مما تسبب في جدل واسع في ماهية الديمقراطية وشكلها وطريقة الحكم من خلال مبادئها، لكن جميع التطبيقات الحديثة للديمقراطية تتفق مع بعضها في الخصائص المركزية التي إن اجتمعت أصبح من الممكن عد ذلك النظام ديمقراطيا.